الأدب الحديث

المحاضرة السادسة

المدرسة الرومانسية – أبو القاسم الشابي نموذجا–

لقد بلغت المدرسة الرومانسية ، أوجها على يد الكثير من الشعراء ، نذكر منهم الشاعر الرومانسي الصرف "على محمود طه" في مصر و الشاعر " أيليا أبو ماضي" في لبنان و "أبو القاسم الشابي" في تونس ، هذا الأخير كان نموذجا للمدرسة الرومانسية المتألقة ، لذا سنتناوله بالدراسة على اعتبار أنه واحد من أعلام هذا التيار الذين عبروا بأسمى العواطف الممزوجة بالحب و الطبيعة .

تغني أبو القسم الشابي بالحب و أشرك الطبيعة في هذا الغناء الوجداني و ثار على الواقع إيمانا منه بأن الشعر يعبر عن العواطف ، و يصور بدائع الكون . و قد بث في قصيدته " يا شعر " فلسفته الخاصة في هذا المجال ، فهو يمعن في الحديث عن قلبه المتعلق بالحياة .

و تتحقق في شعره جميع صور الرومانسية ، بما فيها الخروج عن المألوف و الثورة على التقاليد الاجتماعية و التعبير عما يجري في الجوانح من صراع عنيف .

انضم الشابي الى مدرسة أبولو ولكنه انفصل عنها و ولى وجهه شطر المهجر ثم برزت ذاتيته الخاصة و اصبح له حدسه و لحنه ومدرسته المميزة عن مدرستي المهجر و أبولو . و هي المدرسة التي سماها مُحَمَّد صالح الجابري "بالثالوث الرومانسي" بتونس . و تقوم مدرسته على الأدب التقليدي متأثرا في ذلك بالعقاد[1].

*** مكونات الشعر عند الشابي :**

1 – الإطار العام لشعره : رغم قصر حياة الشابي فقد انبثقت موهبته في سن مبكرة ساعدت عليها العوامل الثلاثة الآتية:

[1]- المرجع نفسه ص 285.

ا – عامل موضوعي يتصل بظروف تونس تحت وطأة الاحتلال الفرنسي .

ب– عامل ثقافي يرجع الى ثقافته و ما اطلع عليه من شعر قديم و حديث.

ج – عامل عاطفي يرجع الى فقدان حبيبته و أبيه و إصابته بمرض أدى به الى الموت .

2 - المضمون الشعري عند الشابي : يدور شعر الشابي في اتجاهين عامين :

ا– الاتجاه الوجداني العاطفي: كانت حساسية الشابي قوية ، اتحدت مع الخلق الشعري لتعطينا أدبا متميزا في ديوانه " أغاني الحياة " و لهذا كانت سمة شعره الأساسية ، الوجدانية و العاطفية القوية، و قد تشكلت هذه الوجدانية وفق العناصر التالية :

1 – **الحب** :

يشكل الحب عنصرا هاما داخل شعر الشابي ، و كيف لا و هو الذي أصيب بفقدان حبيبته و قد شكل الحب له أحزانا متواصلة ، حيث يقول:

أيها الحب أنت سر بلائي * وهمومي و روعتي و عنائي

و نحولي و أدمعي و عذابي * و سقامي و لوعتي و شقائي

و قد امتزج هذا الحب بالطبيعة و أصبح منصهرا معها ، فالحب في رأيه :

يملأ الدنيا فإني سرت في الدنيا أراه

فإذا ما لاح فجر، كان في الفجر سناه

و إذا غرد طير، كان في الشدو صداه

و إذا ما ضاع عطر كان في العطر شذاه

2– **المأساوية**:

و الحب كما يرتبط بالفرح ، يرتبط بالحزن و الآلام ، فأشعاره جراحات غائرة في وجدانه أحدثتها النكبات التي توالت عليه، إذ يقول :

صاح ! إن الحياة أنشودة الحزن * فرتل على الحياة نحيبي

إن كأس الحياة مترعة بالدمع * فاسكب على الصباح حبيبي

الى أن يقول :

ليس في الدهر طائر يتغنى في ضفاف الحياة غير كئيب

خضب الاكتئاب أجنحة الأيام بالدمع و الدم المسكوب

و عجيب أن يفرح الناس في كهف الليالي بحزنها المبوب

يا لقلب تجرع اللوعة المرة من جدول الزمان الرهيب !

3 – **الوحدة و التفرد** :

دفعت هذه الكآبة الحزينة بالشاعر الى التغني و نشدان الوحدة :

و أود أن أحيا بفكرة شاعر * فأرى الوجود يضيق عن أحلامي

إلا إذا قطعت أسبابي عن الدنيا * و عشت لوحدتي و ظلامي

و يقول أيضا في قصيدة أخرى بعنوان " الأشواق التائهة " :

يا صميم الحياة ! إني وحيد * مدلج تائه فأين شروقك ؟

يا صميم الحياة ! إني فؤاد * ضائع ظامئ فأين رحيقك؟

يا صميم الحياة! فقد وجم الناي * و غام الفضا فأين بروقك؟

يا صميم الحياة ! أين أغانيك * فتحت النجوم يصغي مشوقك

4 – **القلـق و المـوت** :

و في أغاني الحياة نجده أيضا يعاني من القلق و الخوف و من الموت ، فقد خطف الموت حبيبته و والده و يهدده هو نفسه ، فيخاطب الموت قائلا في قصيدة " يا موت ":

يا موت قد مزقت صدري * و قصمت بالأرزاء ظهري

و يكفي أن نتعرف على أسماء بعض القصائد من ديوانه لنعرف أسس اتجاهه الوجداني ، فنجد أسماء مثل (من وراء الظلام – مأتم الحب- الكآبة الجهولة – السآمة – الدموع – الأشواق التائهة – أغنية الأحزان – المساء الحزين ...) .

ب– الاتجاه الوطني :

التحم الشابي بقضايا تونس متغنيا بالحرية و آلام الإنسانية ن و قد تمثل اتجاهه الوطني في العناصر التالية :

1 – الدعوة الى الحياة و الحرية :

إذا الشعب يوما أراد الحياة * فلا بد أن يستجيب القدر

ولا بد لليل أن ينجـلي * و لا بد للقيد أن ينكسر

فالشابي يركز في مفهومه للحرية على إرادة الشعب في التحرر و على عمله و تحركه، و لهذا تميزت قصائده الوطنية بالتغني بالشعب ، بل إن لغته نفسها ببساطتها تقرب الشاعر من الشعب.

2 – النزعة الإنسانية :

و الملاحظ في ديوان الشابي أنه لا يقتصر في

حديثه على تونس وحدها بل تطبع ديوانه نزعة إنسانية تخاطب الإنسان حيثما كان ؛ يقول :

و قالت لي الأرض لما سالت * أيا أم هل تكرهين البشر

أبارك في الناس أهل الطموح * و من يستلذ ركوب الخطر

3 – النزعة الغنائية :

الشابي حين يخاطب الشعوب و ينادي بالحرية ، فإن شعره يبقى عاطفيا طافحا بصدق الإحساس ، و لهذا لا نجد في شعره تلك الخطابية الحماسية التي نلمسها عند الكلاسيكيين كما لا نجد في شعره مواكبة الأحداث و تسجيلها بقدر ما نجد نزعة غنائية عاطفية ، فهو يعاتب شعبه و يشارك معه كل الطبيعة :

سألت الدجى: هل تعيد الحيا * ة ؟ لما أذبلته ربيع العمر

فلم تتكم شفاه الام و لم * تترنم عـذارى السر

و قال لي الغاب في رقة * محببة مثل خفق الوتر

يجيء الشتاء ، شتاء الضباب * شتاء الثلوج شتاء المطر

فينطفئ السحر، سحر الغصون * و سحر الزهور و سحر الثمر

لقد انصهرت ذات الفنان الشابي مع ذات شعبه فأعطتنا أنشودة وطنية تناقلتها كل الأسماع ،ألا و هي "إرادة الحياة" ؛ فما هو إذن الشكل الفني الذي يطبع شعر الشابي ؟.

3 – الشكل الفني في شعر الشابي :

لا ننطلق من مفهوم يفصل الشكل على المضمون. و هذا ما يدفعنا الى القول بأن الشكل عند الشابي يتحدد بالمضمون و العكس يبقى صحيحا ، و لعل الاتجاه الوجداني عنده قد حدد لنا اتجاهه الشكلي المنبثق عن النزعة الرومانسية التي تظهر معالمها على المستويات التالية :

ا – الحلول في الطبيعة .

في شعر الشابي تندمج الطبيعة بذات الشاعر لتصبح ذاتا موحدة لا يمكن الفصل بينها ، و تصبح هذه الطبيعة تتحدث من خلال الأشخاص و باسم الشعب أيضا فهو يقول :

و دمدمت الريح بين الفجاج * و فوق الجبال وتحت الشجر

إذا ما طمحت الى غاية * ركبت المنى و خلعت الحذر

و قالت لي الأرض لما سألت: * أيا أم هل تكرهين البشر؟

أبارك في الناس أهل الطموح * و من يستلذ ركوب الخطر

و ألعن من لا يماشي الزمان * و يقنع بالعيش عيش الحجر

هو الكون حي يحب الحياة * و يحتقر الميت المندثر

إن الخيال الشعري عند الشابي يبقى في ذاته خيالا رومانسيا يتصل بالطبيعة اتصالا حميما تتشابك فيه حدود الحب و الجمال و الطبيعة:

عذبة أنت كالطفولة كالأحلام * كاللحن كالصباح الجديد

كالسماء الضحوك كالليلة القمراء * كالورد كابتسام الوليد

أنت أنودة الأناشيد غناك * إله الغناء رب القصيد

أنت أنت الحياة في رقة الفجر * و في رونق الربيع الوليد

أنت أنت دنيا من الأناشيد والأحلام * و السحر و الخيال المديد

ب – **الألفاظ الشعرية** : و إذا نحن عاينا المعجم الشعري الذي ينهل منه الشابي فإننا نجد أغلبه معجما رومنسيا ، ممتلئا بكلمات كالفجر و المساء و النور و الضياء أو القدس و المعبد و الغاب و الأحلام و الخيال ؛ و هي مجموعة من الأوصاف التي يلصقها الشاعر ب(الأنت) حبيبته ، فالطفولة و ابتسامات الوليد تعني الوداعة ، و الأحلام تعني الخيال و اللحن يعني نشوة السمع و الصباح يعني الأمل ن و السماء الضحوك و الليلة القمراء تعني ضياء الفرح الذي احسه الشاعر ،و كلها أوصاف تشارك فيها الحواس ، السمع و البصر و الحس ،فهي إذن لغة جديدة ليست كالتي اعتدنا سماعها في الشعر الكلاسيكي .

ج – **الموسيقى**:

يأتي بعد ذلك النغم الموسيقي ليخلق إيقاعا شعريا جميلا داخل النص الشعري للشابي عن طريق تكرار الكلمات و الحروف و تلاحقها المكثف داخل النص. يقول الشاعر:

من وراء الظلام * هدير المياه

قد دعاني الصباح * و ربيع الحياة

لم يعد لي بقاء * فوق هذي البقاع

الوداع الوداع * يا جبال الهموم

د – **البساطة و الوضوح :**

تقترب قصائد الشابي من الوضوح الشعري ، بعيدة عن كل تعقيد لأنها تأخذ مادتها من الحياة و الطبيعة لا من المعاجم و القواميس .فاللغة الشعرية عنده شفافة واضحة كشفافية الحياة و وضوحها .إنها نتيجة الوحدة الفنية التي تعبر عن الوحدة النفسية التي ينطلق منها الشاعر في صدق و عفوية .

و نخلص الى القول ؛ إن الشابي كما يقول الدكتور كاظم في كتابه ((دراسات في الأدب العربي)) «أعطى الشعر في المرأة و العواطف و الإنسانية، فنسجه من قلبه و دمه و من روحه و مشاعره ، فجاء هذا الشعر واضحا شفافا ينطلق من معاناته الوجدانية الذاتية و من معاناة شعبه تحت نير الاحتلال » ، و لعل عبد السلام المسدي يلخص لنا شاعرية الشابي بعمق قائلا: «انعكست كل هذه الخصائص على شعر الشابي فجاءت به أدبا خالصا بقلقه ، صادفا بحيرته ، عنوان الطبع الأصيل و وجّهته تحت ما في الذات الموجعة ، فكان أدب التحدي للأنماط الزائفة بغية إقامة دعائم لقيم الحق ، و كان أدب الرفض الخلاق...2 »

الأشواق التائهة

" لأبي القاسم الشابي " 26ديسمبر1930

36- أبو عوص أحمد و عبد اللكيف الفرابي - الحركات الفكرية و الأدبية في العالم العربي . ص 357.[2]

دراسة تحليلية للقصيدة:

في المعاجم أن الشوق و الاشتياق ،نزوع النفس إلى الشيء . و الشوق حركة الهوى ، و هو في كتاب العشق توق تحركه حرقة البعد و هيجان القلب عند تذكر الأحبة و الشوق عذاب و ضنى ما لم تعرف النفس ما اليه تنزع و به تعلق ، فتذهب في البحث كل مذهب قلقةً و نفورا ، ما إن تطأ دربا حتى تغلّق دونها المسالك و تنسد أمام ناظريها الأفاق فتولي كسيرة تراودها الرحلة و يلح عليها عنيف الاضطراب و القلق حتى تنكشف لها الحقيقة .

و الشوق في العنوان أشواقٌ فيشتد النزوع و ينفك المشتاق عن وضعه و زمانه ، حركة في اتجاه المأمول تبحر في مجاهل الزمن السحيق بحثا عن الصورة الضائعة.

و هي أشواق تائهة لا تهتدي برسم و لا تعرف إلى غرضها منفذا ، و إنما هو البحث المرهق المِمَضِّ ، الضارب في كل حدب و صوبٍ عساه يقع على الرغبة فيجليها و على الهوى المكنون فيبينه، و ليس في العنوان إلا الاضطراب و الحرقة.

فالقصيدة مبينة على مقاطع موزعة بشكل يمكن ملاحظتها من خلال تعدد حرف الروي و تنوعه، ففي المقطع الأول جاء حرف الكاف رويا مقيدا مع اختلاف في التوجيه و هو حركة حرف ما قبل الروي . فكانت ضمة في الأبيات الأربعة الأولى و كسرة في البيتين الأخيرين من نفس المقطع و كان حرف الروي على مدار بقية المقاطع دالا و سينا و هاء و لاما و نونا .على الترتيب.

لقد أفاد الشاعر من كل الإمكانات الحركية في العربية لبناء القافية (ضمة ، فتحة ، كسرة) فالقصيدة من هذا الوجه لا يقر لها قرار و لا تلتزم نمطا موحدا في بناء أواخرها ، يباشر فيها الشاعر ضربا من الخروج عن الطرق العادية في كتابة الشعر، و يدفع بها في مسالك شتى ، إما صورة من صور التيه و البحث الدائب عن المستقرّ، و إما شعور بأن الدفق الشعري أكبر من أن يحتويه روي مفرد و أن تحيط به نغمة رتيبة نمطية، و في هذه الحالة يكون التنويع رديف الثراء و قرينته بحيث جاءت القصيدة قصائد يطابق جمعها بعض ما وعد به عنوانها.

في المقطع الأول يفتتح الشاعر البيت بالنداء و يغلقه بالاستفهام و هي وحدة مقفلة مشحونة بالتوسلو الاستنجاد، و قد استدعى الإدلاج و التيه الشروق، و كان الرحيق مناسبا للظمأ، و غيم الفضاء و لا يشقه إلا البرق إذا أراد السَّاري أن يتبين إلى مسْعاه سبيلا .و لتحديد المنادى " صميم الحياة " في النص عمد الشاعر إلى توظيف علاقات الخلاف و التقابل بين حقلين دلالين يشمل الأول اللازمة المفتاح "صميم الحياة "، الأفق في البيت 2 .
و يشمل الثاني "الوجود" مجردا(بيت 8و17) أو مقترنا باسم الإشارة (بيت 16) مما يولّد التقابل ،إذ يصبح النداء على هذا النحو مقابلا للتعيين و الإشارة، و يقوم كل من الاسمين خطا فاصلا بين عالمين متقابلين:

عالمٍ يعرفه الشاعر ، يشير إليه و يعينه . و عالم لا يحيط به و لا يعرفه إلا من صورة نقيضة ، فتراه يجري وراءه ، يتشبّثُ به ، يناديه ، و يلحّ في النداء ، و لكن لا سبيل إلى دخول مدائنه إلا باللغة و الاختلاف.فالوحدة و الادلاج يؤديان بصفة عادية إلى التّيه ، و الوحدة قرينُ الغرق و الخوف و الغربة ، تجعل البحث عن الحماية و الأمن شيئا طبيعيا ، فالشروق نور و النور هدايةٌ و ذهاب إلى الظلمة ، و النور إلى كل ذلك أنسٌ ، فكان لا بد من كل هذا التبديد حال الضياع التي تعصف بالمتكلم (الشاعر)و مفهوم الضياع يجسّدُهُ الظمأ الذي استدعى الرحيق، و الرحيق عصارة الشيء و هو هنا في تناغم مع الصميم، ثم إننا إن قارناه بالفؤاد تبين أنه ظمأ مجازي إلى معين الشعر و مورده ليقول الشاعر ما يجيش بكيانه.فالفؤاد و الضمأ و الناي و الغناء كلها منابت التجربة الشعرية و منبعها ،إن حديث الشاعر هنا يتعلق بتجربته الفنية و شعوره العميق بالحاجة إلى الاستزادة من هذه العناصر لتغطية الجدب المحيط بالعالم الذي يتحرك فيه، فهو "مشوق" و متعلَق شوقه " صميم الحياة " و من أغراض الشوق و أعراضه، الذكرى و التلذذ بحديث الوصل قبل الانقطاع و الافتراق، و جاء ترتيب البيت الرابع يفتح المرحلة الموالية إلى النص للصلة المتينة القائمة بين نهاية البيت الرابع (مشوقك)و فتح الباب على الماضي في البيت الخامس.و هكذا كانت نهاية المقطع (1) مجازا إلى المقطع الموالي و خروجا بالقصيدة من زمن الشعر و حاله إلى حديث النشأة الأولى الحنين إلى الأصل قبل ميلاد الشعر و الشاعر بالإبحار في الزمن الماضي في مسار معكوس بحثا عن إطلاقة الشروق و مقاطع النور لترتفع عن الشاعر الحجب و تلاشى العتمة التي تلفه ، هو قتل للزمن المقبل و رفض للحاضر .

في هذا المقطع وظف الشاعر عددا من المظاهر البنيوية و المعنوية لبناء المقابلة ،كالفصل في مستوى الروي بحيث جعل الدال مشفوعا بالكاف الساكنة في البيتين الخامس و السادس على حين أطلقه في البيتين الموالين السابع و الثامن . كما فصل بينهما بعلامة لغوية دالة على العطف و التعاقب و هي "ثم" تشي بالفصل عما سبق بتغيير نوع الجملة في المطلع، فجاءت فعلية تعبيرا عن الحدث الموحي بالتغيُّر و تبدل الحال.و قد أقام الشاعر من جهة أخرى بؤرتين معنويتين متقابلتين في مستوى العنصر الأساسي تقابلا دالا:

فجرُك	≠	الدُّجى
الحلم		أوراقٌ بدادٌ
العطر		ذابلات الورود
النشوة		ضباب
النشيد		هول
الورود		صمت...
—		—
يرفّ		يتلاشى (الفعل الوحيد في الطرف الثاني)

ينهل

يصغي

فالشاعر يبني باللغة مشهد العالم الغائب ، عالم المأتَى الخفي، عالم الشوق و

الحلم، يبحث عنه مخرَجا من العذاب ، عالم الغيبة و الذهول و الانطلاق، عالم الحركة البطيئة الرقيقة كحفيف الأوراق أو ضوء الشذى ، عالم النسيان و التبتُّل و النشوة القصوى ، إنه عالم الشعر ، يصوغه الشاعر بالوصف و شفافية الرؤية و الهواجس الغلبة .

و يأتي "الدجى" يقابل الفجر و تتغير الأحوال و يعقُبُ زمنٌ زمناً، لكن صورة العالم الماضي الجميل تبقى عالقة بالشاعر أو يبقى هو متعلقا بها إلا أن الصورة الثانية تدل على هول الفاجعة " الدجى " فتفصل الشاعر عن عالمه الأول كالطفل يفصل عن أمه في حال الرضاعِ. فالصورة فيها مقابلة بين قطبين دلاليين متناقضين يشكلان تعاكسا في منحى حياة الشاعر ،ففي القطب الأول نجد الفجر و العطر و الورود، و في القطب الثاني نجد الغيم و الضباب و هول الدجى و صمت الوجود ، ففي حين كانت الصورة الأولى غارقة في النشوة و الفرح و الطمأنينة ،أصبحت في الطرف الثاني قاتمة مغروسة في الخوف و الموت (صمت الوجود).تكبر مساحة العالم و تتسع آفاق الحلم و ينقبض الواقع و ينْحسِر في بيت ، فتأتي المقابلة متفاوتة الأطراف يغطي محورها الأول ثلاثة أبيات (9،10،11)، على حين يحتوي الثاني بيتا واحدا(12) و التقابل هنا خفي لأنه يقوم على مقابلة الوحدات و المعاني المفردة ، بل هي الصورة تستمِد معناها و فعاليتها بوضعها إزاء صورة أخرى.فلرسم الطرفين اللذين تتحرك القصيدة فيهما،اضطر في البيت الأخير (12) من المقطع ، إلى اختزال كل الفضاء الشعري السابق بأخباره و أفعاله و مفاعيله و صفاته في كلمة "الأفق" حتى تقابل " صميم الوادي " فالطرفان المحيطان بالمقابلة هما "صميم الحياة" و "صميم الوادي" و ما عدا ذلك فكل المادة اللغوية التي بسطها في الطرف الأول لا نجد ما يقابلها في الطرف الثاني إلا التمييز " ترابا" (12).

و الفعل المرافق له الواصل بين الطرفين "انحدرت" و هو فعل مشحون بكل الإرث الفلسفي و الديني الذي يدور حول بداية الحياة فوق الأرض.

إذن في كل الوحدات – الاخبار – يساوي معنى السمو و الارتفاع ،و كذلك فيها إشارات واضحة إلى العالم السحري الذي يلُفُّ تجربة الشاعر .فالطرف الأول فضاء (بيت 9) لا يحيط به حدٌّ و لا يأتي عليه رسم ، هو عالم الأهازيج و الأناشيد الرقيقة ، أناشيد العبادة و الخشوع و التهجد ، حيث يختلط الغناء برائحة البخور تُشيعُ في الجو نوراً خافتا قلقا لا يستقر ، إيذانا بأن الحياة زائلة واقعة على حدٍّ مسنون، هي أيضا أناشيد الإنسان سارحا في الطبيعة تغمر روحه الراحة و الطمأنينة في عالم سحري يردد خلاله في نشوة لا تعْدِلُها نشوة ، "أغاني الحياة و جمال الكون".هو عالم الشاعر يبنيه بالرؤية و يقُدُّهُ من الضِّياءِ و يسعى إلى إذابته في أبنيتة اللغوية ليُعمِّر به فضاءَ رؤَاهُ.إن

حكاية الحياة ، حكاية الشاعر ،و لا يعدو– ما يقوله – أن يكون ترجمة لها و تاريخا ، للتأكيد على كونه شاعرا.، فتلك حياته من قبل و من بعد.

أما الأفعال الصفات فحركة خفيفة تتسربُ في الكون، و تسري في أوصاله عليها آثار النشوة ، وبعض هذه الأفعال يشي بما أخفاه الشاعر في العنوان مثل فعل "عانق" (البيت 11) في قصيدة مطلعها الأشواق .و بهذا نتبيّن الضنى الذي يدمي أوصال الشاعر ،و نفهم أهمية التاريخ في النص ، إذْ هو حديث عن زمن كان ينعم فيه بوصال من يحبُّ في صورة أثرية عجيبة ، تقوم على استعارتين : استعارة الضياء للحديث عن نفسه ، و استعارة العالم الرحب للحديث عن المحبوبة "ضياء يعانق العالم الرحب " (بيت11).فالشوق تائه لا لأنه لا يعرف متعلق شوقه ، فلقد أبرزه هنا حرية و انطلاقا و آثارا علوية متخلصة من شوائب المادة ، و لكنها تائهة إذْ تسعى إلى ما تعرف أن إدراكه صعب و إلى حالات لا يعيشها المرء إلا بخياله .و من ثم يصبح التاريخ ذاته حكاية و ضربا من الوهم و الخرافة . أما المفاعيل و ما قام مقامها فتُبْرِزُ سعي الشاعر إلى المطلق و الشمول و الانعتاق و التخلص من قيود الوجود ظاهرا و باطنا.

فالفضاء فراغ و انفتاح ، و الضياء نورٌ لا يطوِّقه طوقٌ و لا يحيط به حدٌّ ، إنهما يرسمان صورة العالم بلا قيد و لا عائق ، لا بداية له و لا نهاية ، واقعا في المطلق متقوقِعا في الأبد، هو البديل عن العالم الذي يتحرك فيه الشاعر تلك إذن قصة هذا الشاعر : فجوة عميقة بين ما كان و ما هو كائن ، بين الكون – الحلم ،و الكون – الواقع ، قصة القطع و الانفصال ، و في هذه الفجوة العامرة بالخوف و الرعب و الألم ينْبُتُ شعر و يحفِرُ مجراهُ مستقبلا وجهة الماضي هروبا من الزمن الحاضر، و لهذا جاء بناء القصيدة من الإنشاء إلى الخبر ، من حال النفور و الرفض إلى سببها عودًا على بدءٍ في محاولة جاهدة لإيقاف تقدم الزمن ،و قتل الفعل الذي يعيد قصة التكوين و الهبوط و تدور الصور و العوالم و القيم .

إن الشعور بالهوة و القرار و الانقطاع عن العالم العلوي ، عالم السحر و الرؤى ولّدَ في المقطع الثالث عدة ظواهر " العودة إلى النداء و إصرارا على رفض الواقع و التشبث بالصورة النقية التي رسمها لعالم ما قبل الكون . كما ولّدَ على صعيد البنية اللغوية التعجب الدال على الكثرة (بيت 13) حتى توافق الكثرة عمق الهوة الفاصلة بين العالمين ، و في مجرى التعجب نشأ المعنى الشعري الأساسي الدائر حول مسالة الحنين إلى الأصل و البحث عن عالم المثال و هو معنى الغربة .و الغربة معنى شعري في هذه القصيدة متولِّد عن صورة مهمة قوامها ثنائية (الانفصال/الاتصال)بوصفها حركة متواصلة مترددة بين الواقع و المثال ، و في الفضاء السحيق الفاصل بينهما ينمو الشعر ، و يستمد عناصره ، فتكون التجربة كلها منغمسة في آلام الانقطاع و حرقة الفرقة .و الإحساس بالغربة من جوهر العملية الشعرية ذاتها ، فهو إما ناتج عن قدرة الشاعر على إدراك ما لا يدركه غيره ، أو لأن ثنائية الواقع و المثال لا تعدو أن تكون حلماً و مورداً من موارد الشعر ، و إذ ذاك يكون الحلمُ الشعرَ ذاتَهُ، و تكون آلام الشاعر و عذابه من قدرته على بناء المثال بناء فذًّا ينْحتُهُ من محض خياله ، فيكون التمزق و الانقطاع حالة لا وجود لها خارج الشعر و الشاعر ، و تكون غربة الشاعر من غربة رؤاه و من قدرته على رؤية ما لا يراه غيره ، و تصَوُّر ما لا يتصوره.و في هذا المقطع تبرز المقابلة

المسيطرة على القصيدة و الغالبة على الشاعر ، وهي مقابلة المطلق ≠ المقيّد أو المكان – القيد ≠ الفضاء .لكن هذه المقابلة لم تتضح معالمها لأن العنصر الأساسي المولد لها لم يبرز إلا في البيت 12 و هو الانحدار الذي تم تعيينه بالإشارة أو بالاسم (الدنيا، هذا الوجود) . و النداء كاستغاثة و جريٌ وراء الحلم . و هذا ما يفسر معنى القيد و الحصار الغالب على المقطع . و قد ظهر الحصار في أشكال و قوالب تعبيرية مختلفة :

- حصر بالنبذ و التفرد - غريب – (بيت 13).
- حصر مكاني فيه ضيق شديد – بين قوم – (بيت 14) ،و هو حصر فيه انقطاع في التفاهم و التواصل بإضافة الجملة الصفة (لا يفهمون) بيت 14 .
- حصر حصر مكاني بواسطة الجار و المجرور – في الوجود – بيت 15 .
- حصر بالصورة المحسوسة – مكبل بقيود – بيت15 .

إن تكثف المحاصرة على هذا النحو يؤكد أن الشوق العام الذي يهزُّ الشعور بالحصار المجسد في :

–في الدنيا غريب

–بين قوم لا يفهمون

–في وجود مكبل بقيود.

فالموضوع قيد و المحمول قيد ، أي الصفة قيد و الموصوف قيد ، فتشتد الوطأة على الشاعر،و هذا ما يهيء بصفة طبيعية لبروز الأمر المربوط بالفاء (فاحتضني –بيت 16).فالمقطع من أوله إلى آخره بناء للقيود ، و أطواق داخل أطواق تشد كلها على رقبة الشاعر، فينحبِسُ نَفَسُه و يحس بالخوف و الضياع و انسداد الآفاق في وجهه و ضيقه بالأرض و الناس .و لا يخرج اسم الفاعل " تائه"بيت 15 عن كل هذه المعاني لاتصاله بالعتمة و الانسداد و المحاصرة (تائه في ظلام شك و نحس)، و جاء فعل الأمر مرتين متتاليتين نحتًا من فعلين يدلاّن على التطويق و الاشتمال ، و لكن بمعنى مقابل للمعاني السابقة ، لأنه ينبع من الحنو و الحماية من خلال طلوع صورة الأم جلية لتفك الشاعر من حالة الوحشة و الرعب المتأتية من الشعور الحاد بالغربة ، كما تأكد صورة الاتصال – الانفصال ، إذ يبحث الشاعر عن عالم ما قبل الولادة ،و قد بعثه في البيت بالإشارة إليه (كالماضي) محفوفا بكل المعاني التي سبق أن نسجها. فصميم الحياة هو الأم ، و الشاعر طفل مرهق انقطعت أواصره منذ غادر الرحم الدافئ ، و لم يستطع أن يجد في الأرض الطمأنينة و البراءة و الرقة ، فاحتمى بصورها و راح يجري وراءها في لهفة تقطع الأنفاس ، ظهرت آثارها على بنية القصيدة ، حيث زاوج بين الإنشاء و الخبر .

و السمة الغالبة على القصيدة هي الحنين العميق إلى الأصل، و الجري المضني وراء المطلق الحر بديلا عن القيد و السجن ، إنه شعر مشدود شدًّا إلى وضع الكمال و الحرية ، يبنيه الشاعر باللغة فنًّا بعيدا عن مضايقات الحياة اليومية